

من نقاء الجنس الأدبي إلى تداخل الأجناس الأدبية - مفاهيم نظرية واشكاليات معرفية -

الأستاذ: محمد عروس جامعة تبسة، الجزائر

الملخص

ما هو الجنس الأدبي؟ سؤال بسيط لكنه جوهري، لأنه يتجدد بتجدد الإبداع، ويتطور بتطور النقد.

تعتبر قضية الجنس الأدبي من القضايا الجوهرية والمتجددة في الدرس النقدي عبر التاريخ، لما لها من أهمية على الناحيتين الإبداعية والنقدية، وعليه تسعى هذه الدراسة إلى وضع قضية الجنس الأدبي محل مساءلة.

إن البحث في المفاهيم النظرية، والإشكاليات المعرفية، التي رافقت تحولات النظرة للأجناس الأدبية؛ من القول بنقاء الجنس الأدبي ورسم الحدود بين الأجناس، إلى القول بتداخل الأجناس الأدبية وانهيار الحدود بينها من شأنه أن يعطي قراءة متجددة للإبداع، وهو ما يؤدي إلى ظهور أشكال إبداعية متجاوزة لحدود الأجناس الأدبية المتعارف عليها، وآراء نقدية مفارقة للآراء المتعارف عليها.

Abstract :

What is the Literary Genre ? A simple question but too much essential because it is renewed by Literary creation and it develops as Literary criticism develops.

Thus the question of Literary Genre is one of basic and evolutive problematics of criticism along history, that is for its importance for creation and criticism. The purpose of this study is to interrogate the Literary Genre problematic.

The study of Theoretical concepts and epistemological problematics that had accompanied the evolution of opinion about Literary Genre, from those defending the pureness of Literary Genre and setting limits between them, to those considering Literary Genre interconnected and refusing limits, this situation may generate a new reading of literary creation, and may also lead to the emergence of new forms of expression that overpass the conventional limits, thus new critical opinions totally opposed to the established ones.

مقدمة

يمثل البحث في الأجناس الأدبية، وما يتعلق بها من إشكاليات معرفية رافقت سيرورتها عبر التطور الزمني للظاهرتين الإبداعية والنقدية، مجالا مهما للدراسة، ومحاولة الكشف عن كل ما يحيط بهما من رؤى وتصورات. فالأدب في تطور مستمر، تخضع فيه النصوص دائما إلى إبدالات نصية مختلفة، وتغيرات متنوعة، تفرض على الآلية النقدية الحضور الدائم، والتيقظ المستمر، في حركة دؤوبة، بين النص والقواعد الكلية التي تحكم الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه إن كان مفردا، أو تنتمي إليه النصوص إن شكل تراكمها ظاهرة، وأصبح وجودها الفعلي يستوجب التصنيف، أو يتطلب إعادة النظر في التصورات السابقة، والهياكل التفسيرية الجاهزة. مما يجعل» موضوع الأجناس الأدبية يثير مسائل رئيسية بالنسبة لتاريخ الأدب والنقد الأدبي، وبالنسبة للترابط بينهما»¹، وذلك ما يؤسس للبحث في قضية تداخل الأجناس الأدبية.

تطورت النظرة للجنس الأدبي عبر التحولات التاريخية، التي ربطت العلاقة بين الإبداع الأدبي، و الأحكام النقدية. وذلك ما جعل البحث في الإشكاليات المتعلقة بالجنس الأدبي، يعادل تماما بناء نظرية للأدب. و هو ما يؤكد جان ماري شيفر (Jan Marie Schaeffer) بقوله: « إن معرفة ما هو الجنس الأدبي ؟ و معرفة الأجناس الأدبية الحقيقية، ومعرفة علاقاتها دفعة واحدة، قد عُدت مطابقة لمسألة المعرفة بالأدب»². و منه لا يسع الدارس للعلاقة بين الإبداع والنقد، إلا جعل إشكالية الجنس الأدبي إحدى المباحث الهامة للدراسة. لِمَا لحق قضية الجنس الأدبي من تغير في وجهات النظر التي تؤسس لكل عصر أو مجال معرفي.

و في كل مرة يمكن أن تطرح العديد من الأسئلة المتعلقة بإشكالية الجنس الأدبي، من قبيل: ما هو الجنس الأدبي؟ وما هي أسس التصنيف التي قامت عليها نظرية الأجناس الأدبية؟ وهل هناك استقلال للأجناس الأدبية؟ أم أن ما يطبعها هو التداخل. وما أثر هذا التداخل في مجالي النقد والإبداع؟

ذلك أنه في كل حقبة زمنية يطغى أحد هذه الأسئلة على غيره، حسب وجهة العصر النقدية، وقيمه الفنية، ومداه الإبداعي، مما جعل الإنتاج الأدبي يخضع عبر العصور إلى عمليات الفرز والتصنيف، ومحاولة إيجاد

¹ - وليك، رينيه ووازين، أوتسن: نظرية الأدب، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1412هـ/ 1992م، ص 329.

² - Schaeffer, Jan Marie : que 'est ce qu'un genre littéraire? Seuil, Paris, 1989, p8.

الخصائص المشتركة لكل إنتاج أدبي على حدة. مما أفضى إلى الوصول إلى قواعد كلية، تميز كل إنتاج يحمل تلك الخصائص عن غيره، وهو ما ولد فكرة الجنس الأدبي. فكل جنس أدبي بناء على ذلك ما يميزه عن غيره من الأجناس.

غير أن التطور الحاصل في دنيا الأدب والإبداع، يجعل المبدع دائما يحاول تجاوز تلك الحدود التي تنظم ذلك الجنس الأدبي وتقيدته، حتى يعطي لإبداعه الفريدة والتميز.

وبالمقابل تعمل القواعد التنظيرية للجنس الأدبي على ملاحقة الإبداع، وتوسيع دائرتها التنظيرية، أو إيجاد تصورات جديدة عن هذا الإبداع المتمرد، الذي يحاول تكوين جنس جديد بعمليات التجاوز والتراكم.

وفي جدل العلاقة بين القواعد التنظيرية للجنس الأدبي، والإرادة المتمردة للإبداع، يحدث التطور المستمر لكل من النقد والإبداع. ويكون البحث في مسألة الأجناس الأدبية مفتوحا على التساؤلات المستمرة، في حركة دؤوبة لا تتوقف، تعمل باستمرار على ضبط الحدود المفاهيمية للأجناس الأدبية، أو رسم حدود التداخل بين هذه الأجناس، وكشف المزايا والخصائص الفنية التي تعطي للأعمال الأدبية جماليات فنية وأبعادا دلالية.

إن «ضبط الحدود والإشارة إلى الفروق لا يمنع من الاسترسال بين الأجناس»¹. و الناظر في الساحة الإبداعية المعاصرة — شعرا ونثرا — يلحظ التداخل المستمر بين الأجناس الأدبية، ولكنه لا يستطيع أن يحدّ منه، حتى لو حاول الانتصار لمقولة نقاء الجنس الأدبي، أي باعتبار استقلال كل جنس أدبي عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى. مما حدا برنيه ويلك (René Wellek) إلى التأكيد على أن نظرية الأجناس الأدبية بصورتها القائمة على فكرة نقاء الجنس لم تعد تحتل الصدارة في القرن العشرين — ما بالك في القرن الواحد والعشرين — ويرجع سبب ذلك إلى أن التمييز بين الأجناس الأدبية لم يعد ذا أهمية في كتابات معظم الكتاب المعاصرين، «فالحدود بينها تُعبرُ باستمرار، والأنواع تُخلط أو تُمزج، والقديم منها يُترك أو يُحوّر، وتُخلق أنواع جديدة أخرى، إلى حدّ صار المفهوم نفسه موضع شك»². وهذا المفهوم الذي أصبح موضع شك، ومثار تساؤل، هو مفهوم الجنس الأدبي، وذلك ما حتم على نظرية الأجناس الأدبية أن تغير نظرتها للجنس الأدبي، وأن تعيد النظر في

¹ - صمود، حمادي: مقدمة كتاب التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، بسملة عروس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص 11.

² - ويلك، رينيه: مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 110، جمادى الآخرة 1407هـ/ شباط 1987م، ص 376.

القضايا التي ما فتأت تُطرح عبر العصور، كقضية التطور الأدبي، وماهية الجنس الأدبي، وطبيعته، وحدود العلاقة بين الأجناس، وأُسُس تصنيفها، حتى يتسنى للدراسات النقدية مسايرة الإبداع وتوجهاته، وتجديد النقد وآلياته.

تستثير انتباه المتابع للإبداع الأدبي — شعره ونثره — ظاهرة تداخل الأجناس الأدبية، سواء تعلق الأمر بالنصوص القديمة أو الحديثة أو المعاصرة. ولئن حظيت الرواية وبعض النصوص القديمة كالمقامة بالعديد من الأعمال النقدية و الدراسات والمقالات التي حاولت الكشف عن تداخل الأجناس الأدبية في نصوصها، فإن بقية المجالات ما زالت ميدانا غفلا يتطلب البحث والمساءلة والدراسة وخصوصا ميدان الشعر العربي المعاصر. إذ أنه كما يقول نورثروب فراي (Northrop fraye) « لكل عمل أدبي وجهها قصصيا وآخر ثيميا، ومساءلة أيهما أهم هي عادة مسألة وجهة نظر أو تركيز أو تفسير»¹.

يطرح الدارس لقضية تداخل الأجناس الأدبية بداية جملة من الأسئلة من قبيل: ما هي الحدود المفاهيمية للجنس الأدبي؟ وهل أن الجنس الأدبي يقوم على مبدأ النقاء أم التداخل؟ وما تأثير ذلك على الناحيتين الإبداعية والنقدية؟ وذلك ما يمكن أن نتبينه في الآتي:

أولا: الحدود المفاهيمية للجنس الأدبي

الدلالة اللغوية لكلمة جنس

بالنظر إلى المعاجم اللغوية، نجد أن كلمة جنس يمكن أن تأخذ الدلالات الآتية: « الضرب من كل شيء، فهو من الناس ومن الطير، ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة. قال ابن سيده: وهذا على موضوع عبارات أهل اللغة، وله تحديد، والجمع أجناس و جنوس، قال الأنصاري يصف النخل:

تَخَيَّرْتُهَا صَالِحَاتِ الْجُنُوسِ س، لَا أُسْتَمِيلُ وَلَا أُسْتَقِيلُ

والجنس أعم من النوع، ومنه المجانسة والتجنيس، ويقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله »².

¹ - فراي، نورثروب: تشريح النقد، مجاولات أربع، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان الأردن، دط. 1991م، ص 66.

² - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري الإفريقي: لسان العرب، المجلد 6، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص 43.

ويقابل كلمة جنس في الفرنسية كلمة Genre، وهي مأخوذة من اللفظة اللاتينية Gunus، التي تعني الفصيلة أو الجنس، وقد استُخدم مصطلح Genre في الخطاب النقدي في مجالي الأدب والفن، ليبدل على تصنيف الأعمال الأدبية والفنية¹.

وتدل على كلمة جنس في الإنجليزية لفظة kind و Genre و species.

ويقرن توماس مونرو (Tomas Monro) بين Genre و Type و kind و species، وكلها تتعلق بمعنى الطبقة الأدبية التي يتوقع من الكتاب أن يتبعوا قوانينها المرسومة².

أما مصطلح "جنس" في الموروث الثقافي العربي فلم يتعلق بما هو أدبي على وجه الخصوص، وإنما تعلق بما هو عام وشمولي، وبذلك ما من شأنه التصنيف، فقد عرفه علي بن محمد الجرجاني (ت 816هـ) صاحب كتاب التعريفات بقوله: «الجنس اسم دال على كثيرين مختلفين بأنواع»³، وبذلك يندرج مفهوم الجنس من خلال اختلافه مع غيره، ويكون الجنس أشمل من النوع، لأنه عرف النوع بقوله: «اسم دال على أشياء كثيرة مختلفة بالأشخاص»⁴، وبذلك يكون النوع مندرجا ضمن الجنس.

ولئن اتخذ تعريف الجنس هذا الطابع الشمولي شأن المقولات التي ميزت الثقافة العربية، فإنه يمكن أن يندرج تحت هذه المقولات الكلية الإنتاج الأدبي.

وإذا أردنا أن نسقط هذا التعريف على ما هو أدبي، فيكون الجنس دالا على أنواع أدبية مختلفة بالحقيقة، كاختلاف جنس الشعر عن جنس النثر - من وجهة نظر كلاسيكية - ويكون النوع دالا على العناصر المكونة للجنس الأدبي، والتي تختلف في الخصائص، كاختلاف الرسائل عن الخطب وإن اندرجت ضمن النثر.

وقد ميز أبو هلال العسكري صناعة الشعر عن صناعة النثر، وأشار إلى أن «أجناس الكلام المنظومة ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها

¹ - علقم، صبيحة أحمد: تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، الرواية الدرامية أنموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2006م، هامش ص ص 13، 14.

² - ينظر، مونرو، توماس: التطور في الفنون، ترجمة محمد أبو درة وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1972م، ص 43.

³ - الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني: كتاب التعريفات، تحقيق نصر الدين تونسي، مطبوعات شركة القدس للتجارة، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص 134.

⁴ - المرجع نفسه، ص 392.

تحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب «1. ويظل الجنس والنوع» مقولتان تعبران عن سلسلة المفاهيم في علاقة بعضها ببعض الآخر»2، وتكون «علاقة الجنس بالنوع هي علاقة الكلي بالجزئي»3.

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين الجنس والنوع إلا أن الاصطلاح المعاصر لا يكاد يفرق بينهما، غير أن البحث سيأخذ بمصطلح الجنس لعمومه وشموليته، وتكون بقية المصطلحات في وضعية تراتبية بالنسبة له، الجنس، النوع، النمط، الغرض، ولكن الكثير من الدارسين يعطون للجنس نفس تراتبية النوع وقيمته وهو ما سنأخذ به اضطرارا عند الاقتباس.

(2) الدلالة الإصلاحية

مصطلح "الجنس" يتعلق بمعنى التقسيم أو التصنيف، الذي يتم بعد عمليات الفرز و التمييز، وإيجاد الخصائص المشتركة، التي تسمح لكل فئة أن تنتظم في سلك واحد، لما تتميز به من خصائص كلية و جوهرية. و يكون كل من حمل تلك الصفات، و اتسم بتلك الميزات، يستحق أن يدرج ضمن ذلك الجنس، و كل من فقد تلك الصفات، لا يحق له الانتماء إليه. ذلك أن «التصنيف عملية تجريدية، لترتيب عالم الأشياء»4 و هو بمثابة «تنظيم لوحات، في علاقات اندماجية و تراتبية»5، و ذلك «بملاحظة أكبر عدد من الأحداث الممكنة، و تجميعها و ترتيبها، بحسب مقاييس، يمكن معها استخدام نظام ما»6. وتلك الخصائص تكون فطرية طبيعية إذا تعلق الأمر بالأجناس التي تمثل كائنات حيوانية، أو نباتية، أو ارتبطت بجمادات و أشياء مادية، أو كان نتيجة لما ينتجه الإنسان من علوم نظرية، أو تطبيقية أو إبداع أدبي.

و الإنسان باعتباره أكرم المخلوقات، يصنف إلى جنس الذكور و جنس الإناث. و لكل جنس ما يميزه من صفات خلقية أو خلقية. و المملكة الحيوانية تقوم على التصنيف النوعي، إما باعتبار الوسط الذي تعيش فيه، فتكون مملكة البر و مملكة البحر، أو باعتبار الخصائص الذاتية، فتصنف إلى ذوات أربع،

¹ - العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعات، تحقيق محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، 1971م، ص 167.

² - م روزلتان و ب يودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط5، 1985م، ص 552.

³ - المرجع نفسه، ص 552.

⁴ - علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ودار سوشبريس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م، ص 135.

⁵ - المرجع نفسه، ص 135.

⁶ - المرجع نفسه، ص 135.

و ذوات اثنين، و طيور، و زواحف. وقس على ذلك مملكة النباتات و عالم الجماد و الأشياء.

ولئن استعصى البعض على التصنيف كالخفاش هل ينتمي إلى الثدييات أم الطيور، و أشكل الأمر على علماء الفيزياء فأطلقوا على بعض المواد أشباه معادن، فإن فكرة التصنيف تبقى قائمة، و البحث فيها و إعادة النظر تبقى مستمرة.

و قد وجدت نظريتان فلسفيتان لتفسير إشكالية التصنيف، تؤكد الأولى على الخصائص الفردية و تسمى بـ: الاسمانية Nominalisme، و تمتد الثانية بما يشمل الأفراد من قوانين كلية و تسمى بـ: الكونيات Universaux¹.

و بالنظر إلى ما ينتجه الإنسان من علوم نظرية أو عملية أو إبداع أدبي، فإن فكرة التصنيف تحتل مكانة هامة، فالعلوم تصنف حسب التوافقات الطبيعية التي تميز كل علم عن غيره، إذ الفيزياء لها ما يميزها عن الكيمياء و إن اشتركا في دراسة المادة الجامدة، و الرياضيات لها ما يميزها عن الفلسفة و إن اشتركا في المنطق الصوري و تعلقت الرياضيات بالتصورات الذهنية و الفلسفة بقضايا الوجود.

و بالمقابل، نتج عن معاشة الإنسان لما يوجد في محيطه الطبيعي من موجودات، حاجته إلى خصائص جديدة، لم يظفر بها في ما يوجد في هذا المحيط، فلجأ إلى عمليات المزج و التركيب و أنتج الخلائط المعدنية ذات الصفات الجديدة التي هو في حاجة إليها، فقديمًا مزج ذو القرنين النحاس بخام الحديد لتكون الصلابة أشد و القساوة أمتن، و حديثًا صير الإنسان من المعادن المختلفة خلائط ذات قيمة عالية على مستوى القوة و الجمال، لما بين المكونات من تداخل و تماه في إطار القالب الجديد و الخلائط الناتجة. والأمر نفسه فيما تعلق بالأمواج؛ سواء الضوئية أو المغناطيسية أو الكهرومغناطيسية، أو ما تعلق بالألوان والأضواء، وما ينتج من تركيبها وتداخلها من ميزات، لم تكن متوفرة في الحالة المفردة.

إذا ظهرت الحاجة إلى التصنيف و جدواه العملية من جهة، و تبينت أهمية الخصائص الجديدة الناتجة عن تداخل الفصائل المختلفة، فإن التساؤل عن أهمية التصنيف في ميدان الإبداع و ما ينتج عنه من أعمال أدبية يبقى مثار جدل مستمر، لأن الحرية التي تمثل ميزة جوهرية للإبداع تقتضي دائما

¹ - ينظر، العجيمي، محمد الناصر: "الأجناس الأدبية ومدى إمكان الإقرار بوجودها بالفعل"، مجلة علامات في النقد، مجلد 19، عدد 74، شعبان 1432هـ/ يوليو 2011م، النادي الثقافي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية، ص 68.

كسر القيود و تجاوز الحدود. و لذلك فإن مجال التجاوز وكسر رتابة المؤلف يمثل دائما فضاء رحبا لحرية الإبداع، يستهوي المبدعين، و يولد حركية الإبداع. و ذلك ما يقلل من الانتصار لفكرة الخصائص المميزة لكل جنس أدبي لوحدة، و يفتح آفاق النقد و الإبداع على الفضاءات التي تتجسد فيها حرية الإبداع، و يتخلق في رحمها التداخل بين الأجناس الأدبية، و تتولد الخصائص الجديدة.

و بذلك « تتجاوز مسألة الجنس عالم الأدب و مجال الكتابة و تستمد أهميتها القصوى من ارتباطها بأنطولوجيا الذات و أنثروبولوجيا الوجود»¹، و يغدو التداخل ظاهرة كونية تتلمس فيها الذات المبدعة وجودها، و تتحسس مختلف العوالم المرتبطة بها.

والدارس للساحتين الإبداعية و النقدية يجد أن قضية الأجناس الأدبية توزعها العديد من الرؤى و المواقف، بين قائل بإمكانية التصنيف و التجنيس، و قائل بنفي قضية التجنيس، و القول باستقلال الأعمال الأدبية و تفردتها، و أن كل عمل أدبي يشق طريقه للوجود بنفسه، كما تفعل الأنهار مجاريها بنفسها. و قائل بتداخل الأجناس الأدبية، واستلهاهم عناصرها البنائية من نصوص تنتمي إلى أجناس مجاورة، مع الاحتفاظ بما يمكن أن يمثل عمودا فقريا للجنس الأدبي الأصلي. يحفظ به قوامه، مع ما يمكن أن يعثره من خصائص جديدة، تبعد به قليلا أو كثيرا عن أصله. و لكنها لا تنقله بأي حال من الأحوال كلية عن جنسه.

وسبب هذا التداخل فكرتان اثنتان، تتمثل الأولى في أن « الأدب هو موضوع غير متجانس للغاية. الثانية وهي ليست إلا توسيعا للأولى، إنه لا يمكن أن نعزل الأدب عن الخطابات الأخرى المتداولة في مجتمع ما»²، وهو ما يجعل الجنس الأدبي كما يمكنه أن يتداخل مع الأجناس الأدبية المجاورة، فإنة يتداخل مع مختلف الفنون الإبداعية، ويتأثر بالخلفية الاجتماعية والثقافية التي ينمو في رحمها.

إن تداخل الأجناس وما يتبعه من تداخل للخطابات، جعل التحديد المفهومي للجنس الأدبي، يختلف باختلاف النظرة للجنس الأدبي، من مقولة الجنس الأدبي إلى مقولة اللاجنس، ومن نقاء الجنس إلى تداخل الأجناس.

¹ - الجوة، أحمد: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقص، تونس، ط1، 2007، ص 16.

² - تودوروف، تيزفيتان: نقد النقد - رواية تعلم - ترجمة ساسي سويدان، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص 95.

وأهم وجهات النظر التي حاولت إعطاء مفهوم للجنس الأدبي يمكن حصر توجهاتها الكبرى في التفصيلات الآتية:

أ/ تعريف الجنس الأدبي من خلال السمات المشتركة

من وجهة النظر هذه، يُعرَّفُ الجنس الأدبي بأنه « أية مجموعة من الأعمال التي تُختار، ويُجمع بينها على أساس بعض السمات المشتركة»¹، ذلك أن حاجة الدارسين إلى التمييز بين الأعمال الأدبية، أو إقامة العلاقة بينها، تجعل البحث عن الخصائص المشتركة بين تلك الأعمال، هو الأساس الذي يتم بموجبه وضع حدود للجنس الأدبي، وتحديد دائرة انتمائه.

وإن الوعي بالخصائص الفنية لهذا الجنس الأدبي أو ذاك بما يحمله من سمات مشتركة يحقق له وجودا مستقلا، يعيه المبدع وهو ينشئ نصه، فتحتم عليه القواعد الكلية لهذا الجنس – والتي تمثل هيكله البنائي – الرواق الإبداعي الذي يجب أن يتحرك النص الإبداعي في مضماره. و مثلما يعيه المبدع، يعيه المتلقي أيضا، فتكون الخصائص الفنية المشتركة للجنس الأدبي علامات على طريق الإبداع والتلقي، توجه الإبداع، وتساعد في القراءة، وتفتح آفاق التأويل.

تطرح قضية تحديد الجنس الأدبي – بناء على السمات المشتركة للأعمال الأدبية المنتمية إلى جنس بعينه – العديد من الإشكاليات، أهمها استحالة جمع كل المدونة الإبداعية التي تدعي انتسابها لهذا الجنس أو ذاك. وعليه تبقى مسألة السمات المشتركة نسبية، وقائمة على العيّنات الاختيارية، ثم تعميم النتائج على كل الجنس، مما يلغى سمات بعض النصوص التي لم تشملها الدراسة، فنكون أمام الإقصاء والانتقائية.

إن فكرة نسبية الخصائص المشتركة، ومحدودية المدونة، هي التي أهملتها وجهة النظر القائمة على تحديد الجنس الأدبي انطلاقا من مبدأ الخصائص المشتركة للجنس الأدبي.

لكن ما يُحسب لوجهة النظر هذه، هو التأكيد على استقلالية الجنس الأدبي، وعلى تميز خصائصه الفنية عن بقية الأجناس، التي يشترك فيها كل ما ينتمي إليه، سواء كانت الخصائص شكلية أو مضمونية. وهي خصائص قد تساعد المبدع وهو يتلمس طريق الإبداع، كما تساعد الناقد وهو يمارس فعل النقد على هذا النص أو ذلك. وبقدر الوفاء لخصائص الجنس يكون الانتماء. وبقدر التمرد والتفرد، تكون محاولة إعادة التصنيف.

¹ - كوهن، رالف: التاريخ والنوع، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب، القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ص 25.

تعريف الجنس الأدبي باعتباره مؤسسة

يُعرف رينيه ويلك (René Wellek) وأوستن وارين (Austin Warren) الجنس الأدبي بأنه مؤسسة، فحسبهما « النوع الأدبي مؤسسة كما إن كلا من الكنيسة والجامعة والدولة مؤسسة»¹، وبما أن لكل مؤسسة من هذه المؤسسات تقاليد في العمل والأداء والانتماء، فإن الجنس الأدبي باعتباره مؤسسة ستكون له تقاليد وأعراف، تستوجب على كل من ينتمي إلى هذه المؤسسة، أو يريد أن يبدع في نطاقها، أن تتقيد بنصوصه بما تفرضه المؤسسة من قوانين وقواعد، وما تتطلبه من خصائص ومميزات. تسمح لهذا النص أو ذلك، بأن يحمل اسم جنس معين، وينتمي إلى مؤسسته الأدبية.

ولذلك، يمكن أن ينظر إلى الأجناس الأدبية من خلال فكرة المؤسسة « على أنها ضرورات نظامية تُلزم الكاتب من جهة، وكذلك يلزمها الكاتب بدوره»². وتكون سلطة المؤسسة الأدبية وقوانينها مستقاة من النموذج العليا للإبداع. والذي تحافظ من خلال الالتزام به الأجناس الأدبية، على خصائصها الفنية. و تتكون نتيجة ذلك التقاليد الفنية للإبداع والتلقي، ويحمل نتيجة لذلك كل جنس أدبي صفات خاصة، تكسبه شخصية معنوية، تمكن من محاكمته، ومعرفة شرعية انتمائه للمؤسسة.

إن اعتبار الجنس الأدبي مؤسسة، يقود إلى القول باستقلال كل جنس أدبي عن غيره من الأجناس، وتميز خصائصه الفنية. و بذلك تكون نظرية الأجناس الأدبية مبدءاً للتنظيم، يتم بموجبه تصنيف الأعمال الأدبية إلى أجناس، لا باعتبار العصر والبيئة والزمان والمكان، وإنما على أساس الخصائص الذاتية التي تميز هذه المؤسسة الأدبية.

غير أن فريدريك جمسون (F. Jamson) ينطلق من الجنس الأدبي كمؤسسة، ويفتحه على جمهور المتلقين. ويعتبر أن « النوع مؤسسة أدبية، وباعتباره مواجهة اجتماعية بين كاتب وجمهور معين، حيث تكون وظيفته تحديد الاستعمال الملائم لمنتج ثقافي معين»³. وعليه فإن فريدريك جمسون يُعرف الجنس الأدبي باعتباره مؤسسة أدبية، ذات علاقة مباشرة بحركة الحياة الاجتماعية. هذه الحياة التي تتميز بالتغير والتبدل. مما يستوجب على المؤسسة الأدبية تغيراً وتبدلاً مماثلين. قد تكون الحياة الاجتماعية سابقة والمؤسسة

¹ - ويلك، رينيه ووارين، أوستن: نظرية الأدب، ترجمة عادل سلامة، ص 331.

² - المرجع نفسه، ص 313.

³ - كوهن، رالف: التاريخ والنوع، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 29، 30.

الأدبية تابعة لها، أو تكون المؤسسة الأدبية الأسبق تنظيرا وتوجيها، والحياة الاجتماعية تابعة لها تفاعلا وتأثرا.

وفي كلتا الحالتين، يبقى الجنس الأدبي مؤسسة، تسمح بتحديد الاستعمال الملائم لمنتج ثقافي معين. الأمر الذي يجعل نظرة جمسون للجنس الأدبي كمؤسسة، ينشأ عن التعاقد بين الكاتب والجمهور. « ومهما يكن من أمر فإن أساس النقد النوعي أساس إبلاغي [أي يتعلق بالتواصل]، بمعنى أن النوع يتعين بالظروف القائمة بين الشاعر وجمهوره»¹، وتخصيص الشاعر هنا له علاقة خاصة بموضوع دراستنا من بين جميع الكتاب كإطار عام.

يقلل فردريك جمسون (F. Jamson) من صفة العناصر المائزة، ويستعيز على ذلك بالأيديولوجيا، التي تولد التفاعل بين الجنس كمؤسسة أدبية، لها منتج ثقافي معين، وبين الحياة الاجتماعية التي تتلقف هذا المنتج. وهذه الصيغة التعاقدية في نظرة جمسون للجنس الأدبي « تفترض سلفا تطورا لأنواع يتبع النمط الاقتصادي »².

وهذا المأزق الذي ساق إليه جمسون نظريته للجنس كمؤسسة أدبية، مبنئ أساسا على فكرة أيديولوجية. إذ أن إلغاء السمات المائزة، وتعويضها بالعلاقة التعاقدية بين الكاتب والجمهور، والقول بالتغير الذي يلحق الجنس نتيجة كل ذلك، فيه انفتاح لآفاق هذه المؤسسة الأدبية، أما رهن كل ذلك بالضرورة الاقتصادية للمجتمع، ففيه تحجيم لقيمة المنتج الثقافي وآفاق إنتاجه وتلقيه.

لكن هذا الاستقلال النظري لكل مؤسسة عن الأخرى، وكل جنس أدبي عن سواه من الأجناس، بقدر ما ينطوي على مبادئ للتنظيم على مستوى الإبداع والتلقي، فإنه يخفي تفاعلا بين هذه المؤسسات.

فلا يمكن لمؤسسة أن تستقل بذاتها، مهما حاولت ذلك. لأن معترك الحياة يفرض التفاعل والتجاوز والتداخل، ويقلل من شأن الاستقلال. والشأن نفسه فيما يتعلق بالأجناس الأدبية باعتبارها مؤسسات. فالتفاعل والتداخل بين الأجناس الأدبية حاصل لا محالة، مهما بدا الاستقلال والتفرد. ولكن يبقى البحث فقط عن حدود هذا التفرد، ومجال هذا التداخل. ولذلك يعتبر فاولر (Fowler) أن الأجناس الأدبية ما هي إلا « مؤسسات أدبية وظيفتها الأساسية

¹ - فراي، نورثرودي: تشریح النقد، محاولات أدب، ترجمة محمد عصفور، ص 318.

² - كوهن، رالف: التاريخ والنوع، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 30.

أن تبني إطارا للتوقعات تتم القراءة داخله في سياقات ثقافية واجتماعية محدودة»¹.

وهنا تبقى فكرة المؤسسة الأدبية قائمة. ولكنها تخرج من طور الاستقلال والتفرد، إلى مجال التداخل والتفاعل.

إن اعتبار الجنس الأدبي كمؤسسة، يجب أن يعاد النظر فيه في ظل تداخل الأجناس الأدبية. فبدل النظر إلى الأجناس الأدبية باعتبارها كيانات مستقلة، يجب النظر إليها كونها كيانات تتكامل أدوارها، وتتداخل وظائفها، في ظل واقع يطبعه التداخل في كل شيء.

مما جعلنا يمكن أن نعتبر الأجناس الأدبية مؤسسات مفتوحة، تتداخل فيها الرؤى والمكونات، وتتكامل فيها الوظائف والغايات. و« بدلا من أن يتم التفكير في النص على أنه كينونة ثابتة لها بنية محددة، نتصور أنه كينونة متبدلة وغير مستقرة، منظومة من العلاقات المتبادلة والمتغيرة مع منظومات أخرى، وهكذا تصبح النصية وظيفة لشبكة تناصية، ووظيفة للمؤسسات (النظام الأدبي، نظام القراءة، الشفرات) سواء ظلت كما هي أو تغيرت»². وذلك ما يُحتم على الدارس للأجناس الأدبية باعتبارها مؤسسات، إعادة النظر في فكرة الاستقلال والتفرد لكل جنس أدبي، والبحث في مجالات التداخل والتفاعل بين مختلف الأجناس الأدبية. إن « كل عمل أدبي أصيل يضيف جديدا، وهو يأخذ موقعه في تاريخ الأدب بمقدار ما يضيف من جديد، وتواصل الإضافات يفضي إلى تغير نوعي، فالتاريخ الأدبي تشكيل لا ينفك ينبثق ويتجدد في حراك لا يفتر ولا ينتهي»³.

إن تعريف الجنس الأدبي كمؤسسة يعطي الجنس الأدبي كينونته الخاصة، ولكن يجب إعادة النظر في حدود المؤسسة وعلاقاتها. مما يفتح آفاق البحث في إشكالية الجنس الأدبي، على مجالات التداخل بين المؤسسات، بدل الاقتصاد على استقلال المؤسسة.

تعريف الجنس الأدبي باعتباره فصائل وأنساقا مفتوحة

يُمكن أن يُعرف الجنس الأدبي على أنه « فصائل مفتوحة، وكل عمل جديد يبدل الجنس، من خلال الإضافة إليه، أو التناقض معه، أو العناصر

¹ - بينيت، توني: سوسيولوجيا الأنواع، عرض نقدي، ترجمة خيري دومة، ضمن نفس المرجع، ص 179.

² - المرجع نفسه، ص 187.

³ - زراقت، عبد المجيد: الأنواع الأدبية بين تداخل الأنواع وتميز النوع، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر 22- 24 تموز 2008م، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن 2009م، المجلد الأول، ص 881.

المتغيرة»¹. ويتأسس هذا التعريف على أن الأجناس الأدبية فصائل مفتوحة، لا تعترف بالثبات ولا تعرفه، سواء على مستوى الإبداع أو التنظير. فلا توجد قواعد جاهزة أو نهائية تحكم الجنس الأدبي. ولا توجد قوالب نهائية يُصَب فيها الإبداع. ويتمظهر وفق ما تقتضيه تلك القوالب من قيود وحدود. وإنما يكون الإبداع في دينامية، لا تراهن على التجديد داخل الجنس الأدبي وتوسيع دائرته فقط، وإنما تسعى إلى تبديل الجنس الأدبي، وتحطيم قوالبه الصورية، بما تخرقه من قواعد وقوانين يقوم عليها ذلك الجنس، فتضيف ما تراه جديراً بالإضافة، وتبدع أنماطاً جديدة تتناقض مع ما هو سائد من طرق التفكير وآليات التصوير والتعبير. مما يجعل العناصر المكونة للجنس الأدبي المفتوح، تتميز بالدينامية والتغير، وليس الثبات والاستقرار.

إن الجنس الأدبي باعتباره فصائل من الأعمال المفتوحة، قمين بأن تتجلى في أنماطه الإبداعية ظاهرة تداخل الأجناس الأدبية. مما يُحوّل الرؤية إلى النص كونه موطن المتعة أو اللذة بدل السعي إلى الكشف عن حدوده وانتماؤه. إذ « يقضي النص، بادئ ذي بدء على كل لغة واصفة. وبهذا، يكون نصاً، فليس ثمة صوت (علم، أو سبب، أو مؤسسة) يقوم خلف ما يقول. ثم إن النص بعد ذلك، ليهدم هداماً كاملاً، يبلغ حد التناقض، فنته الاستدلالية الخاصة، ومرجعه اللساني الاجتماعي (جنسه)»². وفي مفارقة النص لجنسه، بشكل كلي أو جزئي، يتحول التفكير من محاولة التعرف على وفاء النص لجنسه، إلى التعرف على الخروقات الفنية التي حدثت للجنس، وجعلته يتداخل مع غيره من الأجناس، أو يؤسس جنساً جديداً. وعليه يصبح التفكير مشدوداً، إلى ما يحمله النص من مكونات بنائية جديدة، يطبعها التجاوز والتداخل.

وقد توصل رالف كوهن (Ralph Kohn) في نظريته للأجناس الأدبية، بعد دراسة مستفيضة لمجموعة من النصوص المختلفة، إلى أن « الأنواع الأدبية أنساق مفتوحة»³، تتطلب دائماً التعريف وإعادة التعريف، بحكم ما يلحق الأنساق من دينامية وتغير دائم. إذ الأنساق أشبه ما تكون بينيات في حركية مستمرة، تسمح بتداخل الأجناس والخطابات على السواء. و « كل نوع يرتبط بالأنواع الأخرى، ويتم تعريفه من خلالها، وتغير مثل هذه العلاقة يقوم على الانكماش إلى الداخل، أو التمرد، أو التمازج»⁴.

1- كوهن، رالف: التاريخ والنوع، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 26.

2- بارت، رولان: لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1992، ص 61.

3- المرجع السابق، ص 31.

4- تودوروف، تيزفيتان وآخرون: القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 31.

وفي اعتبار رالف كوهن (Ralph Kohn) الأجناس الأدبية أنساقاً مفتوحة، تَحُلُّ عن الفكرة القائلة بنقاء الجنس كوجود نصي، إلى القول بانفتاح الجنس الأدبي على مختلف الأنساق؛ الشكلية منها والمضمونية. فيصبح الحضور الفني للجنس الأدبي ليس حكراً على شكل بعينه، أو تعبيراً عن نسق ثقافي خاص، تسلل إلى الذائقة الفنية، وسيطر عليها، ولم يعد بالإمكان مساءلته، أو التساؤل حوله. إنما انفتاح الأجناس متوافق مع انفتاح النصوص، وتداخل الأجناس منسجم مع تداخل الأشكال والأنساق. وعليه يغدو حسب رالف كوهن (Ralph Kohn) «التصنيف عملية أمبريقية لا عملية منطقية، إنها افتراضات تاريخية يضعها الكتاب والجمهور والنقاد لخدمة أغراض اتصالية وجمالية»¹.

وكلما تغيرت نظم الأجناس، وتشابكت الأغراض، توسعت دائرة المجموعات النصية التي تشملها الأجناس، وتنتمي إليها النصوص، وكانت موضوعاً للتعريف من جديد. إذ النصوص المفتوحة تُكوِّن مجالاً للتعلق فيما بينها، ذلك أن «التعلق النصي في الدراسات الأدبية، قدم إفادات هامة من العلاقات التي يمكن أن تأخذها النصوص أو الأعمال الفنية المختلفة بعضها ببعض، كما أنه كشف لنا أنظمة العلامات المتعددة، وكيفية تفاعلها من خلال إنتاج معين في نطاق خاص»². وفعل الإنتاج هذا يعطي النصوص الإبداعية دينامية، ويكون الفضاء الذي تتداخل فيه النصوص على اختلاف الأجناس التي تنتمي إليها، مجالاً للتفاعل، يغني النصوص بجماليات جديدة.

لقد اعتبرت زاوية الرؤية التي تنظر للجنس الأدبي على أنه فصائل وأنساقاً مفتوحة، تداخل الأجناس الأدبية ميزة جوهرية للنص الأدبي. إذ أن «ترسيم الحدود بين الأنواع من شأنه تعطيل جمالية النوع الأدبي، وعدم فسح المجال له لتقديم رؤية فنية جديدة»³. بينما يكون تداخل الأجناس الأدبية فضاءاً لحركية النقد، وتفاعلية الإبداع، في ظل النصوص المفتوحة على مختلف الأنساق والأجناس.

إن محاولة التعرف على الجنس الأدبي، سواء من خلال السمات المشتركة التي يحملها كل جنس أدبي، ونكون أمام فكرة نقاء الجنس، على مستويي الإبداع والتلقي، وتكون المعيارية حاضرة في النقد والتقييم، أو

¹ - المرجع نفسه، ص 31.

² - يقطين، سعيد: من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص 97.

³ - قديد، دياب: تداخل الأجناس في الرواية الجزائرية المعاصرة الكتابة ضد أجناس الأدب، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، المجلد الأول، ص 393.

باعتبار الجنس مؤسسة، كباقي المؤسسات الأخرى، لها تقاليد خاصة في الإبداع والانتماء، من خلال النماذج العليا المهيمنة، أو كون الأجناس فصائل وأنساقا مفتوحة على التداخل، مما يفتح المجال للتجاوز المستمر، إن كل ذلك يجعل إشكالية الجنس الأدبي مجالا متجددا للبحث والدراسة. و ما دامت إشكالية الإبداع والنقد قائمة، ما دامت قضية التداخل حاضرة وجديرة بالبحث والدراسة. فالإبداع يحاول دائما التقلت وتجاوز الحدود المرسومة، والنظرية النقدية تلاحق الظاهرة الإبداعية، وترسم الهياكل التنظيرية المؤطرة لها. وتغدو الأجناس الأدبية كمنتج ثقافي لجذلية الإبداع والنقد موضوعا إشكاليا، سواء تم التطرق إليها من وجهة نظر أنية (سانكرونية)، أو من وجهة نظر تطورية تاريخية (دياكرونية).

وأهم النتائج التي يمكن أن يتوصل إليها البحث في الحدود المفاهيمية للجنس الأدبي تتمثل في:

يمكن النظر إلى الجنس الأدبي من خلال التشابهات النصية، التي يؤدي تراكمها الإبداعي إلى تكوين ذائقة إبداعية، وأخرى نقدية. نطلق على هذا النتاج الأدبي اسم جنس بعينه، تظل له سماته الخاصة، التي توجه النقد وتتحكم في الإبداع.

يعتبر الجنس الأدبي من جهة أخرى، أشبه ما يكون بمؤسسة. لها تقاليدها الفنية. تفرض على المنتمين إليها، الالتزام والنقد، بما تستوجبه من شروط وآليات تنظيم.

وتعتبر النصوص النموذجية العليا، هي الأفق الذي كوّنت من خلاله تلك المؤسسة أعرافها.

وكل من ينتمي إلى هذه المؤسسة، مثلما عليه التقيد والالتزام بما تفرضه من قيود وحدود، فبإمكانه التجديد من داخل المؤسسة. إذ « المرء يستطيع أن يعمل من خلال المؤسسات القائمة، وأن يعبر عن نفسه من خلالها، وأن يخلق مؤسسات جديدة، أو أن يمضي بقدر الإمكان دون أن يشارك في السياسة أو في الشعائر. ويمكن للمرء أيضا أن ينتمي إلى المؤسسات، ثم يعيد صياغة شكلها بعد ذلك»¹، وهو ما يمكن أن يطلق عليه التجديد من الداخل.

الجنس الأدبي من وجهة نظر مغايرة، لا يرضى بالقيود المرسومة، أو التخوم المعلومة، وإنما هو في حيوية ودينامية، يتم فيها دائما التجاوز المستمر

¹ - ويلك، رنيه ووارين، أوستن: نظرية الأدب، ترجمة عادل سلامة، ص ص 313، 314.

لحدود الجنس الأدبي. ونكون ساعتها أمام النص المفتوح، حيث تتحاور النصوص وتتداخل الأجناس وتتفاعل الخطابات.

إن كل محاولة لتحديد الجنس الأدبي، لا يجب أن تغفل المتلقي. فهو من يعطي النص صفة الانتماء لهذا الجنس الأدبي أو ذاك. وهو من يلحظ التداخل بين الأجناس، وعليه « فالمتلقي عامل مهم في تحديد النوع، وهو أهم عنصر يضمن تلاحم البنية، وذلك حين يقوم بتنظيم إدراكه الذي يمنح الرسالة تماسكها»¹، وبذلك فإشكالية التحديد المفهومي للجنس الأدبي لا يمكن عزلها عن القارئ.

تقوم فكرة تداخل الأجناس الأدبية على ما يلحق النصوص الإبداعية من خرق للقواعد الكلية للجنس الأدبي، أو المتجاوزة لحدود الجنس، مع محافظتها مع ما يمكن أن يمثل نواة الإبداع للجنس الأصلي، والذي يعطي للعمل هويته وكيونته الأصلية. مع ما يدخل في نسيجه النصي من عناصر فنية، استقاها من الأجناس الأدبية المجاورة. وهي بمثابة سدّ بخيوط جمالية للحمّة النص، وفي تشابك اللحمة مع السدّ تتولد نصوص يطبعها التداخل.

وهذه النتائج التي أمكن التوصل إليها ونحن نسائل قضية الجنس الأدبي، ونحاول التعرف على هويته، تطرح علينا أسئلة من جديد. فما المقصود بتداخل الأجناس الأدبية؟ وكيف تطورت النظرة للجنس الأدبي باعتبار الاستقلال أو التداخل؟ وما أثر ذلك على الناحيتين الإبداعية والنقدية؟ وذلك ما سيتم بيانه في الآتي.

ثانياً: قراءة في مصطلح تداخل الأجناس الأدبية

يتبين لنا مما سبق، أن التحديد المفهومي للجنس الأدبي وما يتعلق به من إشكاليات، يتغير حسب وجهة نظر الدارس. مما يوسع مفهوم الجنس الأدبي، ويعدد من كونه مبدأ « تنظيم عضوي لأشكال أدبية»²، إلى كونه « طبقة خطاب، يتم التعرف إليها بفضل مقاييس اجتماع - لغوية»³، إلى اعتباره

¹ - علاء عبد الهادي: " مقدمة نظرية لنموذج النوع النووي، نحو مدخل توحيدي لحقل الشعريات المقارنة، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية"، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، المجلد 1، ص 964.

² - علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ودار سوشيريس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م، ص 223.

³ - المرجع نفسه، ص 223.

« مقولة تتيح لنا أن نجمع عددا من النصوص بحسب مقاييس مختلفة »¹، إلى عدّه « أحد القوالب التي تصب فيها الآثار الأدبية »².

وكل ذلك - وغيره - يرتبط أساسا بطبيعة النص الأدبي، وخصوصا المعاصر منه، والذي يتعلق بأجناس أدبية مختلفة، ويحمل في نسيجه البنائي العديد من الخصائص الفنية، و التي لا تخلص في ولائها الفني إلى هذا الجنس الأدبي أو ذاك.

وعليه فإن الدارس لإشكالية تصنيف الأجناس الأدبية، تتبدى له « كثرة الأنواع وتداخلها، وخصوصيات بعض الآثار الأدبية التي تستعصي على التصنيف ضمن ما تعارف عليه الدارسون، والخرق المقصود للأدب المعاصر لمواضع الأنواع، الشيء الذي يجعل تصنيف النصوص عملا معقدا ومتعسفا في بعض الأحيان »³. وفي كثرة الأجناس الأدبية انطلاقا من مقولة نقاء الجنس الأدبي، التي هيمنت على العلاقة بين النقد والإبداع خلال المرحلة الكلاسيكية، وفي التداخل الحاصل بين الأجناس الأدبية، والثورة على القيم الكلاسيكية، كان ميلاد الحداثة الأدبية، التي أنتجت نصوصا لا تستجيب لمقولات التصنيف، ولا تحتمل إلى المعايير الخاصة بكل جنس أدبي.

ولذلك نتساءل: ما هو المصطلح الكفيل بالتعبير عن هذه الظاهرة، التي تتجسد فيها الخصائص الفنية لجنس أدبي، في جنس أدبي آخر؟

لقد عبرت الندوة التي نظمتها جمعية دراسة الأدب الفرنسي في القرن العشرين عن فكرة حضور جملة من الأجناس الأدبية في جنس آخر، بالتفرع الأجناسي L'éclatement des genres، والتفرع الأجناسي حسب دومينيك فوغوا (Dominique Vaugeois) عبارة عن «حركة، وعن حركة تجاوز للحدود»⁴، وذلك من خلال ما يحدث بين الأجناس الأدبية من ألعيب وتحركات واحتكاكات.

¹ - Stalloni, Yves : Les genres littéraires, Dunod, Paris, 1997, p 12.

² - المهندس، كامل و وهبة، مجدي: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1974م، ص 189.

³ - عبد الله، فتيحة: " إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية في النقد الأدبي "، مجلة علامات في النقد، مجلد 14، عدد 55، محرم 1426هـ / مارس 2005م، النادي الثقافي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية، ص 355.

⁴ - Vaugeois, Dominique: condition et fonctionnement de l'hétérogénéité générique dans henri Matisse, Roman, in *L'éclatement des genres au XXe siècle*, Société d'étude de la littérature française du XXe siècle, Paris, Presses Sorbonne-Nouvelle, 2001, pp 36- 37.

أما ميشال مورا (michel murat) فقد اعتبر فكرة "التفرقع الأجناسي" كميز للنصوص الحداثيّة، تبدو مفروضة كبدئية. وأن الأدب يبدو كلا متجانسا لا فرق بين مكوناته.¹

إن مصطلح التفرقع (l'éclatement) يحمل معنى التشظي والانتشار والتشتت، وذلك لا يُعبر بدقة على النص الإبداعي عندما يتجاوز حدوده الأجناسية. إذ الجنس الأدبي ومن خلال النصوص التي تُبدع في إطاره، يبقى وفيًا لميزاته وخصائصه الفنية الأصلية، مهما بدا عليه من تجاوز لحدوده الفنية، إذ النص الإبداعي « يخرج من دائرة النوع (الجنس)، ويندرج تحت نوع (جنس) آخر، أو في الحالات القصوى يخلق نوعا جديدا»².

ومن ناحية أخرى، فإن فكرة التفرقع تعني اختفاء معالم الشيء الأصلية كلية، وذلك لا يتناسب وطبيعة النصوص المبدعة في إطار حضور خصائص فنية لجنس أدبي في آخر.

إذ أن وضع الكتابة حديثا كما يقول دومينيك راباتي (Dominik rabaty) فيه « مزج بين الأجناس ومواطأة بعضها لبعض على نحو مثير ومنتج»³، وعملية المزج تعني أن كل جنس تذوب خصائصه نهائيا في الجنس الآخر، وذلك ما لا يُعبر عنه بدقة مصطلح التفرقع.

وقد حاولت مادلين بورقومانو (Madeleine Borgomano) استبدال مصطلح التفرقع، بمصطلح تراه أكثر مناسبة ودقة، وهو "dérive des genres". وقد عرّبه الأكاديمي التونسي أحمد الجوة بجنوح الأجناس⁴ بدل انحراف الأجناس.

لكن الانحراف عادة ما يتعلق في الوعي الجمعي بالجوانب السلبية، وهو ما لا نريد أن نلصقه كتهمة مبدئية تنقص من شأن الظاهرة وقيمتها الإبداعية، كما أن الجنوح، يعني الميل والإقبال الذي لا يحقق دلالة واضحة محددة، تعطي المصطلح مجالا مفاهيميا واضحا. إذ الجنوح في عرف القانون يعني جنوح الأحداث نحو الجريمة. كما أن جنوح المجتمعات إلى السلم يعني

¹ -Murat, Michel : comment les genres font de la résistance? *L'éclatement des genres au XXe siècle*, p 21.

² - كليطو، عبد الفتاح: الأدب والغربة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 1997م، ص 22.

³ - العجيمي، محمد الناصر: " الأجناس الأدبية ومدى إمكان الإقرار بوجودها بالفعل "، مجلة علامات، في النقد، المجلد 19، عدد 74، شعبان 1432هـ/ يوليو 2011م، النادي الثقافي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية، ص 89.

⁴ - ينظر، الجوة، أحمد: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، ص 34.

الانحصار وعدم الامتداد، وهو ما لا يستقيم والبعد المفاهيمي الذي تتعلق به ظاهرة تجاوز الحدود الإبداعية المرسومة.

وقد تتبع قضية الأجناس الأدبية عند مجموعة من الدارسين الباحث الأكاديمي عز الدين المناصرة¹، وأخذ بمصطلح تداخل الأجناس الأدبية، غير أن عمله كان قراءة مونتاجية، وذلك بالتركيز على استعراض الأعمال المنجزة في إطار قضية الأجناس الأدبية، وبالتالي لم تأخذ مسألة التداخل بين الأجناس ما تستحق من عناية. كما تبنت الباحثة صبيحة أحمد علقم مصطلح "تداخل الأجناس" في بحثها المتعلق بجنس الرواية²، وإن كانت لم تؤسس لهذا المصطلح.

وذلك ما حدا بالباحث إلى استخدام مصطلح "تداخل الأجناس الأدبية" *l'interférence des genres littéraire*، الذي يحمل معنى تجاوز الحدود الإبداعية، مع المحافظة على المعالم الكبرى والأساسية للجنس الأصلي، واستلهم عناصر فنية من أجناس مجاورة، تغني النص الإبداعي، وتعلي من قيمته الجمالية.

وبذلك يُقال تداخل الأجناس الأدبية في الشعر، أو تداخل الأجناس الأدبية في الرواية، أو تداخل الأجناس الأدبية في المقامة، أو تداخل الأجناس الأدبية في قصيدة النثر. وفي كل هذه الرؤى تبقى الرواية، والشعر، والمقامة، وقصيدة النثر ... وغيرها محافظة على شخصيتها المعنوية، من خلال الاسم وما يتعلق به من خصائص جوهريّة، مع ما سيعتريه من صفات عرضية، تغني المظهر، ولا تغير الجوهر.

ومصطلح "تداخل الأنواع الأدبية"، اعتمده مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، المنعقد بجامعة اليرموك، بالأردن، في الفترة الممتدة من 22 إلى 24 تموز 2008م. غير أن المؤتمر أثر مصطلح الأنواع بدل الأجناس، فكان عنوان المؤتمر: تداخل الأنواع الأدبية³. لكن الخلط الحاصل في ترجمة لفظة *genre* على الباحث تقصي المسألة لتكون لفظة جنس أنسب في الدلالة على كلمة *genre*، ويكون النوع والغرض في تراتبية مع الجنس.

¹ - المناصرة، عز الدين: الأجناس الأدبية في ضوء التشريعات المقارنة، قراءة مونتاجية، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010م، ص ص 65، 145.

² - علقم، صبيحة أحمد: تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، الرواية الدرامية أنموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2006م.

³ - تم نشر أعمال الملتقى في مجلدين عن عالم الكتب الحديث، الأردن، 2009م.

وعليه يعني تداخل الأجناس الأدبية حضور خصائص جنس أدبي في جنس أدبي آخر. كما يعني « سعي كتاب نوع ما إلى الاستفادة من العناصر الجمالية البنائية التي تكون نوعا أدبيا أو أنواعا أدبية أخرى، وذلك نتيجة إدراكهم أن المواقف الوجودية التي يودون تجسيدها جماليا في كتاباتهم أو ممارساتهم الأدبية تضيق عنها إمكانات الأنواع التي يبدعون في إطارها، ومن ثم يتوجهون إلى الاستعانة بتقنيات نوع أدبي آخر لإثراء بنية النوع الأول المستعار له »¹.

ومرد التداخل بين الأجناس الأدبية، والذي بموجبه أصبح النص الإبداعي نصا إشكاليا، يأخذ من كل جنس أدبي بطرف، يمكن أن يرجع إلى «طبيعة المبدع الذي تعددت قراءاته، وتوعدت مرجعياته وكذا المتلقي الذي توسع أفق تلقيه»²، وهنا تظهر ثنائية النقد والإبداع. فالإبداع دائما يحاول تجاوز الحدود. والنقد يلاحق الظواهر ويرسم خرائط الإبداع.

وهو ما يولد الحراك الثقافي. فيتم إنتاج نصوص إبداعية تتميز بتداخل الأجناس في كيائها البنائي، ويجعلها مفتوحة على القراءة والتأويل، وتكون بذلك فضاء للتداخل بين الأجناس، ورحما لنمو الأجناس الجديدة، أو التمرد عليها.

وهذا التناوب المستمر جعل تودوروف يقرر « أن كل دراسة أدبية لابد أن تسير في حركة مزدوجة من العمل الفني إلى الأدب في عمومته (النوع)، ومن الأدب في عمومته (أو النوع) إلى العمل المعنى »³. وتكون الدراسة عندها مراعية للواقع الإبداعي وخرائطه التجريبية، وفي نفس الوقت مسئلة قوتها من القواعد التنظيرية. فيتمكن الدارس من رسم المعالم، وتصور الآفاق.

أما محاولة تتبع خرائط الإبداع، في غياب النظريات الكلية، التي تحكم الأجناس، فإنه يلغي الصفة التراكمية التي تميز الدراسات العلمية عن غيرها.

وبالمقابل، فوضع النظريات الكلية، انطلاقا من النماذج التي تُصوّر أنها عليا، يقتل الإبداع ويحد من طاقته التجاوزية. وبذلك يتساعل رينيه ويلك

¹ - أحمد، سامي سليمان: الاقتصاد وتداخل الأنواع الأدبية، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية، المجلد الأول، ص ص 412، 413.

² - فوغالي، باديس: السرد الروائي وتداخل الأنواع رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي نموذجا، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية، المجلد الأول، ص 172.

³ - تودوروف، تزفيتات: الأنواع الأدبية، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 42.

وأوستن: « هل تظل الأجناس ثابتة؟ ويجيبان: ربما لا. إذ بإضافة الأعمال الأدبية الجديدة تتغير التصنيفات»¹. وتتولد الرؤى النقدية نتيجة لتغير الإبداع وتنوعه. مما يسمح بالقول: إن البحث في مسألة الأجناس الأدبية يجب أن يظل بحثاً مستمراً. لأن الإبداع يتطور، والنقد يتغير. وهو ما أوقع رولان بارت في حيرة من أمره، وهو يحاول تصنيف ج. باتاي هل هو شاعر أم قصاص أم كاتب مقالة. وخلص إلى أن النص « لا يدخل ضمن تراتب، ولا حتى ضمن مجرد تقسيم للأجناس. ما يحدده على العكس من ذلك، هو قدرته على خلخلة التصنيفات القديمة»². حيث تتداخل الخطابات كما تتداخل الأجناس، إذ أنه « يتم إنتاج الخطاب الأدبي وتطوره طبقاً للأبنية التي يمكن تجاوزها، لا لشيء إلا لأنه وجدها في مجال لغته وأسلوبه حتى اليوم »³.

إن النص الأدبي الناتج من تداخل الأجناس الأدبية يفتح آفاق القراءة ويخرجها من حدود النمطية. كما أنه يشحذ الموهبة الإبداعية. ويحرصها على ارتياد مناطق جديدة للإبداع؛ بكسر رتابة اللغة، وجلب عناصر وأساليب فنون أخرى، تحضر في النص الإبداعي. فيتجدد الإبداع وتتسع القراءة والتأويل.

لكن النص الذي نتج من التلاقح بين الخصائص الفنية للأجناس في منطقة التداخل بينها « إن تبلورت خصائص معينة له، وشاعت هذه الخصائص في نصوص متميزة شيوعاً يمثل ظاهرة موصوفة، يصحح نوعاً أدبياً، تصنف في إطاره أعمال أدبية، وليس من شك في أنه سيتم تجاوزه وإبداع نوع آخر»⁴. ويكون التداخل سبيلاً لتنمية الإبداع وتطوير آليات النقد.

وما يمكن استنتاجه مما سبق نستطيع تحديده في الآتي:

1- إن مصطلح تداخل الأجناس الأدبية، هو المعبر بنوع من الدقة والتحديد، على الظاهرة الإبداعية المتمثلة في ظهور الخصائص الفنية لجنس أدبي، في جنس أدبي آخر.

2- يجلب المبدع الخصائص الفنية لجنس أدبي كالرواية، إلى جنس أدبي آخر يبدو مختلفاً للوهلة الأولى بناءً على الذائقة الفنية الموروثة كالشعر، بغرض إكساب النص الشعري جماليات فنية، وأبعاد دلالية، إما أنها ضامرة وغير نامية، فيعتمد إلى إعطائها نوعاً من النماء و الدينامية، أو أنها غير موجودة

¹ - ويلك، رنيه ووارين، أوستن: نظرية الأدب، ص 314.

² - بارت، رولان: درس السميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ص 61.

³ - تودوروف، تزيفيتان: الأنواع الأدبية، ترجمة خيرى دومة، منشور ضمن كتاب القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ص 44.

⁴ - زراقط، عبد المجيد: الأنواع الأدبية: بين تداخل الأنواع وتميز النوع، منشور ضمن أعمال ملتقى تداخل الأنواع الأدبية، المجلد الأول، ص 884.

أصلاً، فيعمل على إدراجها في النص الشعري، وإعطائها نوعاً من الإشعاع والمطاوعة والتجلي، بما يخدم هذا النص.

3- يتعلق تداخل الأجناس الأدبية بالعديد من مجالات الدراسة، فيحضر في الرواية، والمسرح، والقصة، والمقامة، والشعر، وغير ذلك.

الخاتمة

يعتبر البحث في الإشكاليات المعرفية المتعلقة بالجنس الأدبي، مجالاً خصباً للدراسة. ذلك أن انتقال النظرة للجنس الأدبي من مقولة "نقاء الجنس الأدبي"، إلى مقولة "تداخل الأجناس الأدبية"، يخفي تراثاً إبداعياً ضخماً، ورؤى نقدية عديدة. حاول فيها الدارسون الإجابة عن أسئلة من قبيل: ما هو الجنس الأدبي؟ وما الحدود التي تفصل هذا الجنس الأدبي عن ذاك؟ وما مدى الانفصال أو التداخل بينهما؟

و في كل مرة تتغير وجهات النظر النقدية وتتوسع، ويتفاعل الإنتاج الأدبي مع تلك الرؤى ويتنوع، تبعاً للذائقة الفنية لكل عصر، ومداه الإبداعي، ورؤاه النقدية.

وفي محاولة التحديد المفهومي للجنس الأدبي نُظر إليه من خلال الخصائص المشتركة لعينات إبداعية، ويكون التصنيف تبعاً لتلك الخصائص والميزات. كما نُظر إليه على أنه مؤسسة لها تقاليدها الإبداعية ورؤاها النقدية، والمستلهم من النماذج العليا للإبداع والنقد. واعتبره آخرون أنساقاً مفتوحة يتجلى فيها تداخل الأجناس الأدبية.

وما يمكن أن يتوصل إليه البحث في الإشكاليات المتعلقة بالجنس الأدبي من نقاء الجنس إلى تداخل الأجناس الأدبية تتمثل في الآتي:

إن اعتبار الجنس الأدبي بمثابة أنساق مفتوحة تعبير عن الظاهرة الإبداعية المتمثلة في تداخل الأجناس الأدبية.

يُعبّر مصطلح تداخل الأجناس الأدبية عن الظاهرة الإبداعية المتمثلة في حضور الخصائص الفنية لجنس أدبي في جنس أدبي آخر، بما لا يفقد الجنس الأول خصائصه الجوهرية، وذلك ما نلمسه في الرواية، والمقامة والشعر وغير ذلك.

تطورت النظرة للجنس الأدبي، انطلاقاً من فكرة نقاء الجنس الأدبي، وأهمية التصنيف، في إقامة الحدود بين الأجناس الأدبية، إلى فكرة تحطيم القيود، وانتهاك الحدود الفاصلة بين الأجناس الأدبية، والتأسيس لتداخلها بدل

نقائها، وبذلك يكون الانتقال من نقاء الجنس الأدبي إلى تداخل الأجناس الأدبية، وهو ما يُفَعِّلُ حركية الإبداع والنقد على حدٍّ سواء.

إن مقولة تداخل الأجناس الأدبية تستجيب لمتطلبات العولمة الثقافية، فمثلاً صار العالم قرية صغيرة تتبدى فيها كل الثقافات، فكذلك النص يتجسد في تمظهراته الشكلية العديد من الأنماط الإبداعية.

المصادر والمراجع

المصادر

- 1- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني: كتاب التعريفات، تحقيق نصر الدين تونسي، مطبوعات شركة القدس للتجارة، القاهرة، مصر، ط1، 2007م.
- 2- العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين، تحقيق محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، 1971م.
- 3- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري الإفريقي: لسان العرب، المجلد6، دار صادر، بيروت، لبنان، دت.

المراجع العربية

- 4- بسمه عروس: التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
- 5- الجوة، أحمد: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ط1، 2007م.
- 6- حداد، نبيل و درابسة، محمود: تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر 22-24 تموز 2008م، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2009م، المجلد الأول.
- 7- حداد، نبيل و درابسة، محمود: تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر 22-24 تموز 2008م، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2009م، المجلد الثاني.
- 8- علقم، صبيحة أحمد: تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية، الرواية الدرامية أنموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2006م.
- 9- علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ودار سوشبريس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985م.
- 13- كليطو، عبد الفتاح: الأدب والغربة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 1997م.
- 10- المناصرة، عز الدين: الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة، قراءة مونتاجية، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010م.
- 11- المهندس، كامل و وهبة، مجدي: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1974م.
- 12- يقطين، سعيد: من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

المراجع المترجمة

- 14- بارت، رولان: لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1992م.
- 15- تودوروف، تيزفيتان وآخرون: القصة، الرواية، المؤلف، دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997م.
- 16 - تودوروف، تيزفيتان: نقد النقد - رواية تعلم - ترجمة سامي سويدان، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.
- 17- فراي، نورثروب: تشريح النقد، محاولات أربع، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان الأردن، دط، 1991م.
- 18- م روزلتان و ب يودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط5، 1985م.
- 19- مونرو، توماس: التطور في الفنون، ترجمة محمد أبو درة وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1972م.
- 20- وليك، رينيه ووارين، أوستن: نظرية الأدب، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1412هـ/ 1992م.
- 21- وليك، رينيه: مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد110، جمادى الآخرة 1407هـ/ شباط 1987م.

المجلات والدوريات

- 22- مجلة علامات في النقد، مجلد 14، عدد 55، محرم 1426هـ / مارس 2005م، النادي الثقافي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية.
- 23- مجلة علامات في النقد، المجلد 19، عدد 74، شعبان 1432هـ/ يوليو 2011م، النادي الثقافي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية.

المراجع الأجنبية

- 24- Murat, Michel : comment les genres font de la résistance? *L'éclatement des genres au XXe siècle*, Société d'étude de la littérature française du XXe siècle, Paris, Presses Sorbonne-Nouvelle, 2001.
- 25-Schaeffer, Jan Marie: *que 'est ce qu'un genre littéraire?*, Paris , Seuil , 1989
- 26- Stalloni, Yves : Les genres littéraires, Dunod, Paris, 1997.
- 27-Vaugeois Dominique : condition et fonctionnement de l'hétérogénéité générique dans henri Matisse, Roman, in *L'éclatement des genres au XXe siècle*, Société d'étude de la littérature française du XXe siècle. Paris, Presses Sorbonne-Nouvelle, 2001.